الفصل الحادي عشر
لا شيء غير الحقيقة

رُوي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش"، وقد روي عن الطبري أنه ذكر جملة من الأحاديث عن الرسول بهذا المعنى.

من خلال محاولات الكثير من الباحثين والمؤرخين نجد أن البشرية ما زالت حائرة لمعرفة من أين جاء الساميون الأوائل مثلاً، وأين كان موطنهم الأول، وربما نحن وغيرنا لن نجد جوابًا يطابق جوابًا آخر وستظل الأجوبة متقاربة أو متباعدة، وستبقى تأخذ شكل النظريات والتفسيرات والفرضيات، لهذا لا يجد الكثيرون من الباحثين في النهاية إلا أن يستسلموا لما ذكرته الكتب المقدسة.

في هذا الكتاب لن نقف عند تفسير معين إذا افترضنا بأننا أحرار فيما نقول وما نعتقد، فلن نرفض رأي أو وجهة نظر بالذات، لكننا سنستخلص مما عرفناه بالاستقراء وبالمقارنة والاستنباط، وسنقدم وجهة نظرنا المختلفة قليلاً عما تعودنا أن نتلقاه من آراء، ذلك كوننا بشر أيضًا لا يحجب تواصلنا عن الرأي الآخر، سوى عدم قناعتنا بما كان ذلك الرأي الآخر عليه أو عدم قبولنا للصورة التي قُدِّم بها الرأي الآخر وأوحت بما أوحت لنا كقراء من معنى ما زال يقدم شكوكًا وعلامات استفهام يزداد عددها مع مرور القرون والأيام.

فبينما يرى الغير من خلال البحث والاستنباط، ويقودهم في هذا ما ورد في الكتب المقدسة ذلك بأن بابل كانت المهد الأول للساميين، ورأى آخرون أن جزيرة العرب هي المهد الأول لأبناء سام، وذهب قلة إلى أن أفريقيا هي وطن سام بسبب صلات اللغات، فإننا نجد أن المنطق وتطور حياة البشر على كوكب الأرض خصوصًا وأن حركة جزيئات المادة التي تتكون منها الأرض لا تتوقف عن الحركة حيث أثبتت البحوث الجيولوجية بأن لا طبقات الأرض ولا مواقع البحار كانت ثابتة عبر الأزمنة، لقد ثبت أن كثيرًا من مناطق الكرة الأرضية كانت في الماضي مغمورة بالماء مثلاً، لذا فإن لا شيء ثابت على هذا الكوكب بدء من الإنسان نفسه.

لهذا لا يمكن الجزم برأي أن المهد الأصلي للسامية هو بابل، لأن أكثر الحركات والهجرات عند أغلب الأمم السامية كانت من نزوح جموع سامية من أرض جزيرة العرب إلى بلاد ما بين النهرين، العراق حاليًا، وإلى سوريا وفلسطين، وإلى وادي النيل، وحتى إلى الحبشة، لهذا أيضًا يمكننا القول بإن من المحتمل أن تكون أقدم الهجرات من شبه الجزيرة العربية كانت إلى بلاد ما بين نهري دجلة والفرات وحيث نشأت هناك حضارات متعددة كما هو الحال حينما نشأت الحضارات على ضفاف الأنهر أو كما حدث في مصر والصين في العصور القديمة.

ونفس الشيء أو لمغريات أخرى أوجبتها الحاجة، كانت الهجرة الكنعانية والآرامية التي تركت جزيرة العرب حينما كانت المنطقة مسكونة بالقبائل التي تعتمد على المواسم والفصول لأجل توفير سبل العيش بالتنقل من منطقة إلى أخرى، كانت إذا ما وجدت أرضًا خصبة استقرت فيها وتغير نمط الحياة، وكان يتحول مجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة، التي حينما تقوى كان يصير لها نفوذ وتصبح إمبراطورية، هذا وقد اتفق الباحثون على أن هجرات أخرى حدثت في التاريخ بعد الهجرات الأولى، كهجرة الهكسوس حينما غزوا مصر، وكما هاجر العبرانيون من آشور إلى فلسطين.

إن كثيرًا من المؤرخين ينسبون الهكسوس بأنهم قوم من العبرانيين، ولماذا لا يكونون كذلك ما دام يعود نسبهم إلى المنطقة الممتدة من شبه الجزيرة العربية إلى العراق وإلى بلاد الشام، لذا يمكن القول بإن الاكديون والاموريون والكنعانيون والآراميون والعرب كانوا أمة واحدة أو فروع لأصل واحد أساسهم العرب القحطانيين، وأن من أول الأقوام العاربة التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية هم الاكديون الذين أسسوا أول مملكة قوية في بلاد الرافدين في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، تقول الباحثة غادة أحمد محمد "إن هذه الأقوام كانت وقت تأسيس مملكتها الأولى من القوة وكثرة العدد والعدة ما مكنها من السيطرة على زمام الحكم، وعزا بعض الباحثين أن هذه المملكة هي أول إمبراطورية في

التاريخ"، لذا يمكن القول بإن اليهود قد استمدوا منها بسبب انتمائهم إلى قبيلة العبرانيين ما استوحوه على هواهم من التاريخ، وما أوجدوا بعد ذلك من نبوءات وفضائل لهم فوق كل البشر خصوصًا وإن كل كتاباتهم تمَّتْ بعد أن أصبحوا غرباء عن أصولهم وعن بلادهم الأصلية، فأضحوا متحررين من رقابة القوم الذي نشأوا بينهم، كل الأمم وكل الشعوب تتباهى بأنها الأفضل والأعرق، والأكثر أصالة من غيرها، سواء كانت غنية أو فقيرة، متحضرة أو قبلية قديمة أو حديثة، فهل الأمة الأمريكية مثلاً، تعتبر الشعب المصري أفضل لأن له حضارة عمرها سبعة آلاف سنة أو أن الشعب البريطاني يعتبر أن الأمة اليونانية أفضل من الشعب البريطاني لأن منها أرسطو وسقراط، لو ذكرنا أمثلة ووضعنا المقارنات فلن ننتهي، إذن لماذا لا نفترض بأن اليهود بسبب هجرتهم الأولى والثانية والثالثة إلى أرض كنعان وإلى مصر وإلى أرض كنعان ثانية ثم الشتات الذي أصابهم بعد ذلك على يد الفرس والآشوريين والرومان، لماذا لا نعتبر أن كل ذلك قد أعطاهم الفرصة لكي يتعلموا الكثير من الشعوب التي عاشوا بينها، وجعلهم ينتقون ويستفيدون من علوم الغير وتجاربهم، فأضحوا حريصين مثل كل الأغراب الذين يعيشون كأقليات بين الشعوب الأخرى، ولذلك فقد يكون من الجائز أن يكون كل هذا قد منحهم وعيًا خاصًا جعلهم يستفيدون من تجارب الغير كما أسلفنا، فكتبوا تاريخ الآخرين ودسوا تاريخهم بما يصفون به أنفسهم على لسان الإله بأنهم شعب الله المختار.

وكعادة الدول والممالك حينما يشتد عودها، فإنها لا تتردد في غزو جيرانها، نجد أن "سرجون" الاكدي ملك آشور تمكن من القضاء على المملكة السومرية "إسرائيل" وأسَّس أول إمبراطورية عربية "آشورية"، لذا كان هناك من يقول بإن من الصواب اعتماد مصطلح العرب – العاربة، بدلاً من مصطلح السامية.

إذا اقتربنا أكثر نجد أن من المتفق عليه، هو أن العبرانيين نسبة إلى إبراهيم العبري، أما المختلف عليه، فهو سبب تسميته بالعبري، لأن هناك من يقول إن سبب التسمية هي لأنه عَبَرَ مع قومه النهر إلى فلسطين أو أن اسم جده "عيبر".

الإمبراطورية الأشورية
أراراط
بحر قزوين
أشور
مادي
البحر الكبير (المتوسط)
بابل
مصر

تذكر كتب التاريخ بأن العبرانيين جاءوا إلى فلسطين على ثلاث دفعات، كانت الأولى حينما جاؤوا مع سيدنا إبراهيم من بلاد الرافدين في القرن ١٨ ق.م، والثانية حينما أتوا مع الآراميين في القرن ١٤ ق.م، والثالثة من مصر مع موسى في القرن ١٣ ق.م، ويُعتبر العبرانيون هم خامس من استوطن أرض كنعان بعد العموريين والآراميين والكنعانيين والفلسطينيين.

وهنا لا بد من وقفة مع القاريء للقول بإن الفكرة التي نسوقها في هذا الكتاب ليست لكي يضحي الكتاب أحد كتب التاريخ التي تعج بها المكتبات العامة والخاصة في العالم العربي، وليست فكرة الكتاب الأساسية هي تسفيهها لبعض المعتقدات الدينية، لأن ما ذُكر من بعض المواقف التاريخية وتطور الأحداث، لا يعدو الهدف منه إلا ترك أثر في نفس القاريء لكي يُطلق العنان للعقل، ويستنتج بنفسه كيف يستطيع البشر أن يغتصبوا التاريخ والدين، وكيف يمكنهم أن يفرضوا ثقافة هم يخترعونها على الآخرين، وهو بالضبط ما استطاع فعله شُعبة من العرب الأقدمين الذين لوَّنوا أنفسهم وأطلقوا عليها اسم قوم العبرانيين، مستغليين ما تم بناؤه من تقدم وتطور في حضارة ما بين النهرين التي عاش أجدادهم فيها، ولما شعروا بتفوقهم غزوا جيرانهم إلى أن وصلوا إلى أرض كنعان فاستحسنوها، ولما أرادوا أن يقيموا فيها بصفة دائمة بعد أن وجدوا الحياة مريحة نوعًا ما فيها خصوصًا وأنهم سكنوا مصر المتفوقة على حضارتهم الأصلية قبلاً ولم يقدروا على المنافسة، فوجدوا أن الحل هو غزو فلسطين مرة ثالثة لأنها الأسهل، هذا وقد اتفق المؤرخون جميعًا على أن اليهود اختلفوا فانقسمت دولتهم إلى دولتين كما ذكرنا في غير مكان، هما دولة يهوذا وعاصمتها القدس في الجنوب ودولة إسرائيل وعاصمتها السامرة في الشمال، لكن قبل المضي هنا نجد من الأهمية أن نذكر بأن العبرانيين لو كانت فلسطين الأفضل لهم أساسًا لما غادروها إلى مصر، وهذا لو نحينا جانبًا قصة يوسف بن يعقوب واستعملنا العقل فقط.

لقد أدى ظهور الملك الآشوري تغلات بلاسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) إلى الحد من توسع مملكة إسرائيل، وقام شلمنصر الخامس وبعده "سرخون الثاني" بتأديب "يوشع" ملك الإسرائيليين وتلاشت بذلك مملكة إسرائيل عام ٥٨٦ ق.م، بعد ذلك هاجم نبوخذ نصر مملكة يهوذا التي كانت عاصمتها القدس، فاحتلها ودمر القدس، وسمل عيني "صدقيا" مَلِكَها وقتل أولاده أمام عينيه، وسبى أهلها إلى بابل، وأنهى أخر مملكة عبرية في التاريخ.

مما يلفت الأنظار أيضًا وحتى في زمن كتابة هذه السطور، أن الأخبار تتوارد على أن مجلس محافظة بابل بالعراق، قرر استبدال اسم محافظة بابل ليصبح "الحلة" التي هي أيضًا إحدى مدن محافظة بابل، ولا شك بأن تغيير اسم بابل كما يقول أبناء العراق له علاقة بدول أجنبية مثل إسرائيل مع ما يعني ذلك للتأثير على كتب التاريخ ومكانة بابل وما ترمز إليه بالنسبة لأهل المنطقة، وقد قيل إن جهات أجنبية قد صرفت نقودًا بأشكال مختلفة لأجل دعم تغيير اسم بابل.

هذا، وسنرى في الكتاب كيف استطاع هؤلاء مستفيدين من خبرتهم مع تقلبات الأزمان والدول، ومع ما أصابهم من دمار وأخطار أن يتمكنوا في هذا الزمن باقتدار بالسطو على فلسطين وطرد أهلها، كونها الحلقة الأضعف في فترة من فترات التاريخ وحيث صادف أيضًا أنها في موقع لافت لأنظار العالم.

قبل أيام الهجرة اليهودية الأولى إلى فلسطين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر حينما راحت تضعف الخلافة العثمانية وقبل أن يتم تمزيقها وتقطيعها نتيجة للحرب العالمية الأولى، ما كان لليهود أن يقيموا دولة لهم في فلسطين كما لم يستطيعوا ذلك قبل ألفي عام، والسبب ببساطة هو لأنهم كانوا لا يقوون على ذلك، وحينما استطاعوا ماديًا بكل ما تعنيه الكلمة حيث توفر المال والإمكانيات والتحالفات مع الإمبراطوريات والقوى المتنفذة، صنعوا ما أرادوا بإرادات البشر، فلو كانوا المفضلين عند الرب لما تركهم ٢٠٠٠ سنة لكي يعودوا الآن للقدس، لأن ما حدث في فلسطين لم يكن إلا بسبب توفر العوامل الدنيوية والمناخ، وميزة بني إسرائيل

أنهم منظمون كأفضل الأمم، ويجيدون اغتنام الفرص، والآخرين من أهل المنطقة هم عكس ذلك.

لو تمعنا في الأمر أكثر، لوجدنا أن الدافع الديني لليهود لم يكن هو سبب تجمعهم وتعاونهم، لأنهم عاشوا ألوف السنين في أوطانهم الأصلية ولم يحركهم دين من أجل الذهاب إلى القدس، وحتى حينما قوي نفوذهم وأضحى لهم اتحادات وتنظيمات وبعد أن أوجدوا المنظمة الصهيونية العالمية، كانوا ينظرون للقدس كأي بقعة أخرى مدرجة على جدول أعمال إمكان الخيارات لكي تكون وطنًا لليهود لو قدروا أن يحصلوا على موافقة الدول الكبرى، بل حينما استعصى على زعمائهم التفاهم مع السلطان عبد الحميد ووجدوا رفضًا تامًا منه، لم يدفعوا حلفاؤهم على اعتبار المشروع اليهودي لاستيطان فلسطين هو مشروع مقدس رغم أن المسيحية الصهيونية في أوروبا وأمريكا كان لها تأثير ونفوذ، إذن هناك أسباب أخرى جعلت الصهيونية تتمكن من الوصول إلى فلسطين.

بالنسبة إلى يهود الإمبراطورية الروسية الذين كانوا يعانون من مضايقة الروس لهم حتى وإن كان بعض زعمائهم قد نادوا برغبتهم الهجرة إلى فلسطين، فلم تكن فلسطين بالنسبة لهم سوى أنهم كانوا لا يعرفون اسمًا غيرها، كونها مذكورة في التوراة، وأما ذكر القدس في أدعيتهم في المناسبات كأن يقول الواحد للآخر "العام القادم في أورشليم" أو ما هو بهذا المعنى، فلا يعدو ذلك إلا أن المقصود مشابه لما يقوله المسلم للمسلم وهو يتمنى الخير لأخيه، يقول "في مكة أو على عرفات العام القادم"، بمعنى أنه يتمنى لأخيه أن يؤدي فريضة الحج أو يزور المكان الشريف، وليس المعنى أن الواحد يتمنى للآخر أن تكون إقامته الدائمة في مكة، لو عرضت مكة مثلاً على كل المسلمين لكي يقيموا فيها بصفة دائمة لما أقام فيها إلا نفر قليل، والدليل أن سكان المملكة العربية السعودية لا يقيمون كلهم في مكة ومعظمهم من المسلمين.

بابا الكاثوليك يقيم في روما أيضًا، فهل كل مسيحي العالم من الكاثوليك يقيمون في روما! لهذا فمن المنطق أن تكون نظرة اليهود إلى القدس قديمًا وحديثًا هي

التعامل مع القدس كما يتعامل المسلم مع مكة والكاثوليكي مع روما، وأكبر دليل على ذلك، ها هي إسرائيل دولة مستقلة وقوة ذرية وقوة عظمى إقليمية واقتصادها مزدهر وتستورد العمالة من الدول الأجنبية، فهل أتاها كل يهود العالم لكي يقيموا فيها، طبعا لا، إن إسرائيل تصنع المستحيل لأجل استقدام مهاجرين جدد من يهود العالم، وتحاول بشتى الوسائل أن توصل رسالة ليهود العالم، فتقول لهم نحن نمثلكم ونحن نسهر على أمنكم، إسرائيل تقول علنًا بأنها مسئولة عن أمن كل يهودي في أي دولة هو يعيش فيها، ومع ذلك ما زالت عاجزة عن جذب يهود أوروبا وأمريكا للقدوم والعيش فيها.

بطريقة أخرى، هل اليهود الإسرائيليين أكثر تدينًا من الذين يعيشون في بلادهم الأصلية، طبعًا لا، إذن هناك عوامل أخرى جعلت اليهود الصهاينة يستطيعون أن يحققوا حلم الدولة التي خططوا لها على أرض فلسطين التاريخية، إن عامل الدين ليس أساس بناء الصهيونية العالمية، علمًا بأن الصهيونية بدون الشعار الديني تفقد حجتها أمام اليهود وأمام غير اليهود، ويفتضح أمرها وتصبح عصابة قامت بأكبر خديعة لليهود وللمسيحية الأصولية.

هذا، وحينما تعرف الصهيونية بالمعني الديني اليهودي الذي يُشير إلى جبل صهيون في القدس، إنما ذلك هو تعريف هُلامي عام لا يسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية وإن كثرت مرادفات التعريف، لا شك بأن مقولة العودة إلى صهيون أضحت الفكرة المحورية في النسق الديني اليهودي العام، أما الصهيونية كلفظة بمدلولها السياسي الحديث فهي بلا شك تعود إلى الصحافي اليهودي النمساوي "ناتان بيرنباوم" الذي كان أول من استعملها في مقالة له بعنوان "التحرر الذاتي" عام ١٨٨٦م، وبعد ذلك أتت تعريفات كثيرة، وقال هرتزل مُعرفًا الصهيونية بأنها حركة الشعب اليهودي في طريقه إلى فلسطين.

الصهيونية وكل التعريفات التي أتت بمعناها، كلها اختُرعَت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبالتحديد في الربع الأخير من ذلك القرن، إن كل ما قاله ناتان بيرنباوم، هرتزل، بنسكر وموزيس هيس وكل أساطين الصهيونية لم يعطوا

تعريفًا دقيقًا ومحددًا خصوصًا ما له رابط ديني، ثم أين الدين من الصهيونية التي اخترعها أمثال هرتزل العلماني، ألا يُظن بأن هناك تزييف وطمس وخلط لمفهوم الديانة اليهودية حينما تربط بالصهيونية.

حينما يأتي المرء بفكرة ما جديدة، فإننا نقول هو فكَّر وقال ما قال وذكر ما ذكر، وإن فكرته تعني كذا وكذا، وسرعان ما ترتبط الفكرة بالمحسوسات والمنظورات وببقية الحواس الأخرى التي لدى الإنسان، إذن الفكرة هي مخلوق أوجدها مخلوق يناقشها مخلوق، ويكون لها عمر مثل أي كائن على الأرض، فقد تستمر الفكرة ألف سنة وقد تموت بعد نطقها لعدم منطقيتها وضحالتها، وقد تستمر ولكن ليس إلى نهاية، الصهيونية كفكرة وإن نجحت أو تم تطبيقها على مدى الستين عامًا الماضية وقد تستمر أكثر لأسباب اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، ولكن سيكون لها أجل معين مثل كل شيء على الأرض.

لقد استطاعت إسرائيل وكما عمل الإعلام الصهيوني أن تضع صورًا تحذيرية للآخرين من يكونون على أن من يتجاوز تلك التحذيرات يُعتبر معاديًا للسامية وعممت ذلك على كل دول العالم، حتى أن الاتحاد الأوروبي قد أقر رسميًا بذلك وأن الدول الغربية كلها صارت تعتبر تلك التحذيرات جنحًا جنائية تطال من يخالفها من يكون من البشر، من تلك التحذيرات:

- اتهام الصهيونية أو اليهود أو إسرائيل بإيذاء البشر، أي أن كل ما فعلته دولة إسرائيل مع الفلسطينيين هو مجرد دفاع عن النفس.

- مناقشة الهلوكست اليهودي، أي يتوجب اعتماد الرواية الصهيونية فقط، وإن كان البشر هم من وضعوها.

- إنكار حق دولة إسرائيل في الوجود، أي أنه يتوجب على الفلسطينيين والعرب أن يعترفوا بإسرائيل كما تريد هي، أن تأخذ ما تريد من الأرض وأن تعطي ما ترضى للفلسطينيين، إن أعطت فهي تُقدم تضحيات مؤلمة، فصاحب الحق الأصلي آخذ وإسرائيل مضحية.

- اتهام اليهود بموالاتهم لدولة إسرائيل أكثر من ولائهم لدولهم التي يعيشون فيها، وهذا يعني أنه لا يوجد نفوذ يهودي صهيوني في الدول الأخرى فكيف يفسر في المجتمعات الغربية أن الجاليات اليهودية تتمتع بما تحسد عليه من ميزات مقارنة بالآخرين من أوجه كثيرة من الحياة.

- اتهام اليهود بالسيطرة على مقدرات الدول الإعلامية والاقتصادية، أما السيطرة الإعلامية والاقتصادية فحدث ولا حرج، فلا مجال هنا لوصف السيطرة اليهودية في المجتمعات الغربية بصفة عامة.

- اتهام اليهود بقتل المسيح، نحن نعلم بأن النصارى يعتقدون وفق نصوص أناجيلهم بأن دم المسيح في عنق اليهود، بل ربما كان اليهود يعترفون بذلك ويفتخرون به.

- المقارنة بين سياسة إسرائيل والسياسة النازية، بلا مقارنة هنا نسأل، ماذا يُطلق على ما اقترفه الإرهاب المنظم من مذابح وقتل من قِبل دولة إسرائيل ضد الفلسطينيين؟

مما سبق يمكن القول بإن الصهيونية المتمثلة بدولة إسرائيل ومن يساندها، يعتبرون أن كل ما تقرَّه الصهيونية ودولة إسرائيل هو مقدس، وفي الحقيقة هو الخطر بعينه، فلا شيء من المفترض أن يعتبر مقدسًا ما دام من أعمال البشر أو مما تفوهوا به، ويظل دائمًا قابلاً للنقاش، فلماذا يخاف الصهاينة مراجعة غيرهم لما ذكرنا من نقاط تحذيراتهم للآخرين، أليس الحقيقة فقط هي ما لا يقبل التصويب ولا يجب مناقشته.

إن الحقيقة ببساطة لا تُناقش لأنها حقيقة، لكن الصهاينة العلمانيين الذين عمر حركتهم ما يزيد قليلاً على مائة عام، يضعون قوانينهم وقراراتهم وأحلامهم وأطماعهم وظلمهم للآخرين موضع التقديس فيربطونه بالديانة اليهودية، ويجب على العالم أن يفهم جيدًا إنَّ رفض شيء لإسرائيل هو لا سامية وعنصرية.

من ناحية أخرى، أين العلاقة الدينية اليهودية للحركة الصهيونية، ونحن نعلم أن الصهيونية ما كانت لتوجد لولا أن تغييرات وأحداث عبرت بها المجتمعات التي تواجد فيها اليهود بصورة ملموسة، فلولا التحولات الاجتماعية وبروز الدولة القومية وحركات الإصلاح العلمانية، لما فُرض "الجيتو" مثلاً، ولولا اضطهاد اليهود في روسيا لما وُضِعت بذور الصهيونية، وحتى من هاجر من اليهود الروس اتجه معظمهم إلى أمريكا وبلاد أوروبا وجزء يسير ذهب إلى فلسطين، إذن السبب الرئيسي لولادة الصهيونية هي العنصرية التي تبناها أغنياء اليهود في أوروبا الغربية لأجل توظيفها اقتصاديًا أيضًا، وذلك لخلق مشروع اقتصادي مهيمن عليه من قِبلهم ويظل مِلكًا لهم يحاربون بسهولة من ينافسهم في مشاريعه الاحتكارية، حتى ولو كان هذا المشروع على صورة وطن لليهود في أوغندا أو في غيرها أو أن يكون فلسطين، فهل هذا من اليهودية بشيء؟ إذن إضفاء الصفة الدينية على إسرائيل ليس أكثر من خداع مؤقت يقبل التغيير في أي وقت إذا اقتضت مصالح من يعنيهم الأمر.

هذا، ومن الملاحظ أن زعماء الدولة الصهيونية ما فتئوا يلحون على الإدارة الأمريكية الفاعلة في هذا الزمن في السياسة العالمية على اعتراف العالم في عصر العولمة، بأن إسرائيل هي دولة يهودية أي صبغتها دينية رغم أن جوهر الدولة ونظامها ليس دينيًا، أعلن الرئيس الأمريكي السابق جورج دبليو بوش في إحدى المؤتمرات في شرم الشيخ بمصر، بأن إسرائيل مهما نظر إليها العرب والعالم بأي كيفية هي دولة يهودية.

المفارقة أن الإعلان جاء على لسان رئيس أكبر دولة ذات نفوذ في العالم بأن إسرائيل دولة يهودية بمعنى دينية، في الوقت الذي تقود فيه أمريكا العالم بثورة العولمة التي تطمس في لججها الديانات والقوميات، وهذا يعني أن إسرائيل بالنسبة للغرب هي فوق كل الدول والأمم والأنظمة، فهل يا ترى أن إسرائيل تعتبر المرجع المقدس بالنسبة للبشرية، وأن الصهيونية متجهة فعلاً لحكم العالم، وأن كل ما تقوله إسرائيل وزعماؤها يجب اعتباره مقدسًا لا يقبل إعادة التفكير!

كيف تعتبر مقولات زعماء إسرائيل مقدسة وهي تخلو من الخير، حينما يقول أحد زعماء إسرائيل بإن الفلسطيني الجيد هو الفلسطيني الميت ألا يعتبر هذا عنصرية، وحينما تقول أم إسرائيل كما أطلق الأمريكيون على جولدا مائير أحد رؤساء وزراء اسرائيل حيث ظلت حتى عام ١٩٦٩م تُنكر وجود الشعب الفلسطيني، ألا يعتبر هذا في مقدسهم كمن ينكر وجود المحرقة بل وأكثر، لأن إنكار وجود الشعب الفلسطيني هو إنكار شعب بأكمله وليس مجرد إنكار جزء منه، أليس أن يقول الإسرائيليون بإن دولة إسرائيل هي يهودية وتجد أن رئيس الولايات المتحدة يؤيد ذلك، هو جريمة ضد ما يزيد عن خمس عدد سكان إسرائيل من العرب وغيرهم من أهل المعتقدات الأخرى.

إذا كان ما يتهم به الفلسطينيين دولة إسرائيل وزعماءها يقبل التشكيك والنقاش والإنكار في أغلب الأحيان تحت مبرر شيطاني اسمه الدفاع عن النفس، فلماذا لا يقبل التشكيك ما تقوله الصهيونية وما تخاف أن يعيد التفكير به الآخرون، حينما يقول زعيم صهيوني بمرتبة حاييم وايزمان، "إن أعداء أعداء اللا سامية من اليهود الأوروبيين هم أكثر خطرًا على المشروع الصهيوني من أعداء السامية"، فهل هذا مقدسًا لا يقبل التشكيك، بينما الزعيم الصهيوني يعني أن المقصود أن أعداء أعداء اللا سامية إنما هم يضعون العصا في دولاب المركبة الصهيونية المتجهة لاستيطان فلسطين، لأنهم لا يؤمنون ولا يريدون سكنى فلسطين، كونهم من أهل الديانة اليهودية التي لا تعترف بقيام دولة لليهود، حسب تفسير ما قاله حاييم وايزمان فإن أولئك يستحقون التجريم لأنهم يخالفون دين الصهيونية، دين اتحاد الاحتكارات المالية المتمثلة أو تبدو على صورة دولة اسمها إسرائيل، أو التي مثلها قبلاً هو ولورد روتشيلد وأمثالهما قبل أن تُصبح واقعًا على أرض فلسطين.

يُستدل من كافة الدراسات وكتب التاريخ ومراحل تطور الفكر الصهيوني خصوصًا في أوروبا الغربية، بأن الصهيونية أساسًا كفكرة لم تكن أيديولوجية إنما كانت مشروعًا، وفي الحقيقية كانت مشروعًا يهوديًا، لكن المشروع اليهودي كان قد سبقه مشروع مسيحي وجد أصلاً بسبب الهجرة اليهودية إلى أوروبا الغربية،

ومن هنا صارت المجتمعات الغربية تتململ وتضيق باليهود الفقراء القادمين من الإمبراطورية الروسية، وهو ما جعل زعماءهم في الحكومات والبرلمانات يسعون إلى التخلص مما أصبح يضايق مواطنيهم فعملوا على استحداث "الجيتو" اليهودي في بلادهم، ويمكن القول بإن المشروع المسيحي قد أدى إلى التفكير في خلق صيغة أكثر عملية بالنسبة للمشكلة اليهودية، ومن هنا برز المشروع اليهودي وراح يتطور بالتنسيق مع المشروع المسيحي وتم مزج المصالح المادية بالحاجات الإنسانية للقائمين على المشروعين، ومن هنا راحت تتطور وتتحسن فكرة الصهيونية إلى أن أضحت أيديولوجية وصار يتم تسويقها لليهود ولغير اليهود بالخداع تارة وبالرشوة تارة أخرى، لكن اليهودي كان أقدر الأشياء على التنفيذ.

توظيف السلبيات:

تُعتبر الحركة الصهيونية أكبر تحدي واجه الوجود العربي في فلسطين التاريخية، وأشرس وأقوى أيديولوجية كيانية تحدت العرب على ملعبهم، فقد عملت الصهيونية وما زالت على تحطيم الإرادة العربية، لذا هي أكبر تحدي وجودي واجه العرب المسلمين حول مدينة القدس في العصر الحديث، لقد استطاعت الحركة الصهيونية أن تجعل الشتات اليهودي المفترض أن يكون محكومًا بقوانين المجتمعات التي يعيش فيها بهيمنة رأس المال، أن يكون أساسًا فكريًا وتنظيميًا جديدًا لليهود الذين عبرت عليهم عواصف التغيير التي مسَّت الشعوب التي عاشوا بينها عبر التاريخ الإنساني الطويل، فأوجدت القومية الصهيونية، ودفعت إلى الحاجة للأرض، وأقنعت الكثير من اليهود برفض المنافي، وعملت على الشروع في إيجاد ثقافة مشتركة بين اليهود، واستطاعت أن تتغلب على تناقضات الجماعات الصهيونية بعلمانية الحركة الصهيونية، وأخذت من الحضارة الغربية ثمرة ما وصلت إليه من رقي وصلت إليه أوروبا نتيجة ثورات، بعد أن تخطت التقاليد والأنظمة والدين، ذلك منذ الثورة الإصلاحية في القرن السادس عشر،

واستمرارها في الثورة العلمية، حينما كان جاليليو ونيوتن وغيرهما من فرسان الفكر والاختراعات العلمية، أولئك الذين نبغوا في القرن السابع العشر، وفي الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر، ووصول هذه الثقافة إلى الذروة في الثورة السياسية (الفرنسية)، التي رفعت شعار المساواة وحقوق الإنسان.

واستطاعت الصهيونية أن تتغلب على العرب وهم في أرضهم، وحيث كان هذا رغم كل شيء يعطي العرب أسباب التفوق لو كانوا على شيء من التنظيم أو كما فعل اليهود من أجل إنشاء دولة إسرائيل منذ السبي البابلي ومنذ تدمير الرومان لآخر معاقلهم في القدس، ومنذ طردهم من الأندلس على يد الفرنجة، فرغم أن منطق الصهاينة وحجتهم لا تجد سندًا أخلاقيًا في اغتصابهم لفلسطين، إلا أنهم قد استطاعوا أن يفرضوا وجودهم بالتنظيم أولاً ثم بقوة رأس المال ثانيًا وتأثيراته في الجهات الأربع من العالم، وبالقوة العسكرية ذات المهنية العالية بعد ذلك، استطاعوا منذ ما يزيد عن قرن من الزمان أن يشرعوا في الهجرة إلى فلسطين وأن يقيموا دولة لهم، ورغم أن العرب قد هبُّوا لإيقاف الزحف الصهيوني إلا أن الصهاينة استطاعوا أن يحيدوا القوة العربية المبعثرة وأن يجعلوها أثرًا بعد عين، وليس هذا فقط بل إن اليهود الإسرائيليين كانوا في كل حروبهم يحشدون قوة عسكرية تتفوق من ناحية العدد والعدة على كل الجيوش العربية المقذوفة في أرض الصراع.

ليس صعبًا والحال كذلك أن نتصور المهانة والذل الذي أصاب الأنظمة العربية لو استقرأنا تاريخ الصراع العربي الصهيوني على مدى سنوات النصف الثاني من القرن العشرين أو بعد أن أعلنت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، لقد هبَّ العرب أو من استطاع منهم في ذلك الوقت، هبوا للذود عن حياض فلسطين واستمر العداء العربي على أشده لإسرائيل ومن ساند إسرائيل من دول العالم كبيرها وصغيرها، رغم أن الإمكانيات العربية في ذلك الزمن كانت خجولة إلى أن استطاعت إسرائيل أن تغير مجرى الصراع في حرب الأيام الستة، لا لأنها هزمت الجيوش العربية على ثلاث جبهات واحتلت أراض أخرى من الوطن العربي أضعاف مساحة

فلسطين التاريخية فقط، وإنما لأنها هزمت الأنظمة العربية في منطقة اللاوعي وأقنعتها بأن لا فائدة من الحرب مع إسرائيل.

بعد حرب ١٩٦٧م انكفأ العرب مبتعدين عن ساحة الصراع العسكري ولم يبق في الساحة سوى الشعب الفلسطيني، بإمكانياته الذاتية المتواضعة مع بعض المساعدات العربية من بعض الأنظمة، التي صنفها الإعلام الصهيوني العالمي بالدول المارقة، بعد ذلك تمَّت المصالحة بين إسرائيل وبين بعض الأنظمة العربية، وعلى إثر ذلك تم جر منظمة التحرير الفلسطينية بسبب قلة الإمكانيات وتخلي العرب أن تمضي في طريق التنازلات لإسرائيل، ولم يكتف العرب الفاعلين إقليميًا بأن يظلوا على الأقل على الحياد بين إسرائيل والفلسطينيين بل إنهم راحوا يتوسطون بين الفلسطينيين وإسرائيل بعد أن تخلوا عن العداء لإسرائيل المغتصبة لأرض فلسطين، وأكثر من ذلك أصبحت الأنظمة العربية جهارًا تنصح وتضغط أحيانًا على الفلسطينيين من أجل إعطاء المزيد من التنازلات لإسرائيل، سبحان مغير الأحوال!

من هنا يستطيع المرء لو قام بوزن الأمور بمقياس ثقافات الأمم، أن يفهم بسهولة أن الأيديولوجية الصهيونية قد تفوقت وانتصرت حتى الآن على الفلسطينيين وعلى العرب أجمعين، ومن هنا أيضًا نجد لزامًا علينا أن نذهب إلى أخر حدود المنطق لكي نعرف لماذا انتصرت الصهيونية على العرب في عقر دارهم، لذا سنحاول أن نُسلط الضوء على كيف استطاع الصهاينة أن يطوروا سعيهم وأن يوجدوا منظمة بحجم وقوة المنظمة الصهيونية العالمية، لذا فقد أصبح لزامًا علينا أن نجد إجابة للسؤال الذي راح يفرض نفسه: من هم الصهاينة؟ كيف تم خلق المشكلة اليهودية لكي تحتل مركز الصدارة في العالم؟ ما هو سبب استمرارها رغم أن السعي من أجلها احتاج إلى ما يزيد على قرنين من الزمان حتى تبلورت على الصورة المحكمة التي صنعت دولة يهودية على تراب فلسطين دون أن تحيد عن مسارها على مدى الحقبات؟؟!

لا شك بأن عوامل كثيرة قد لعبت أدوارًا هامة في حياة اليهود، وجعلت الكثيرين منهم كل لأسبابه أن يعمل من أجل إنشاء دولة لليهود، حتى أن كثير من نشطاء اليهود في البداية لم يكن يهمهم أين يمكن أن تقام دولة اليهود، وقد رأينا أنه بعد أن كاد يشتد عود الحركة الصهيونية فقد دبَّ الخلاف بين أكثر من تنظيم صهيوني وذلك خلال التمهيد للمؤتمر الصهيوني الأول، بسبب عدم تحديد هدف أين يتوجب إنشاء الدولة اليهودية، إلى أن تغلَّب التيار الصهيوني الذي اختار فلسطين لأسباب دينية واقتصادية وسياسية وفضَّلها على غيرها.

يمكن القول بسهولة، بإن العرب (الفلسطينيين) لم يكونوا سببًا في خلق المشكلة اليهودية في العالم، فلم يكن العرب هم من سَبوا اليهود إلى بابل قبل ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد، ولم يكن العرب هم من طردوا الجالية اليهودية من القدس في القرن الثاني الميلادي حينما قضى عليهم الرومان، ولم يكن العرب الفلسطينيون في العصر الوسيط من طردوا اليهود من أسبانيا، بل إن العرب ابقوا على اليهود وأحسنوا وفادتهم سواء في شمال أفريقيا أو في المشرق العربي، وعاش اليهود بينهم وتمتعوا بالأمن والأمان والعمل، لكن خروج اليهود من الأندلس في القرن الخامس عشر ولجوء قسم كبير منهم إلى أوروبا الغربية كان قد أشعل نار العنصرية ضد اليهود من قبل أوروبا المسيحية مما جعلهم يعانون من عدم الاستقرار خصوصًا في ألمانيا، مما جعل أعمالهم وتجارتهم أيضًا تنحصر وتضيق وقد سبب ذلك قلقًا وعدم استقرار لهم.

وحينما جاءت الثورة الفرنسية بشعارات المساواة وحقوق الإنسان ارتاح اليهود قليلاً، وعادوا إلى أعمالهم فأنشئوا المصانع وفتحوا الأعمال وانشأوا بيوت المال من بنوك وغيرها، إلا أن الأمر قد عاد ثانية ولقوا ما لقوا من تمييز من الشعوب الأوروبية مما جعل حاخاماتهم ومفكريهم يجولون في خواطرهم ويبحثون عما يمكنهم أن يفعلوه، وصاروا يبحثون عن سبب عدم اندماج الجاليات اليهودية في المجتمعات التي تعيش فيها، ولقد ولَّدَ هذا لديهم شعورًا جديدًا يُعتبر أولى بذور الأيديولوجية الصهيونية الحديثة.

لقد كان لظهور دور الدولة القومية في أوروبا أيضًا أثر كبير في دفع اليهود إلى البحث عن هوية تؤَّمن لهم الاستقرار الاقتصادي وتحمي أملاكهم وأموالهم، لـذا صار أغنياء اليهود الأوروبيين يبحثون عن وسيلة لكي يتوفر لرؤوس أمـوالهم حرية أكثر وأمانًا للتنقل والعمل والنجاح، وقد رأينا بعد قيام دولة إسرائيل كيـف أضحت تلك الدولة تتضخم اقتصاديًا بأكثر مما تستطيع أن تبتلع، وأصبحت مركز الشبكة الاقتصادية ليهود العالم، فلم يمض على إنشاء إسرائيل نصف قرن إلا وقد أصبح اقتصادها أكبر من مجموع اقتصاديات الدول المحيطة بها رغم حداثتها في الوجود، ورغم أن كل القادمين إليها من المهاجرين اليهود هم من المعدمين، بـل وأضحت نقطة جذب للأيدي العاملة من غير اليهود أيضًا للعمـل فـي المـزارع والمصانع، ولم يكن ليتوفر هذا إلا لأن أغنيـاؤهم نقلـوا جـزء مـن ثـرواتهم واستثمروها في الدولة الوليدة، لهذا يمكن القول بإن إسـرائيل أضـحت معمـلاً ومختبرًا لكل ما يمكن بحثه وطبخه لتحقيق أهداف أغنياء اليهود في الغرب بصفة عامة، وهو ما جعل الغرب المُسَيْطِر عليه اقتصاديًا من قِبل اليهـود إلا أن يظـل مستنفرًا للحفاظ على الثروة الاقتصادية التي وضعها مواطنيه من أغنياء اليهـود واستثمروها في إسرائيل التي ألبسوها ثوبًا مزخرفًا حاملاً لشعارات ما أنـزل الله بها من سلطان من دينية ووطنية وأخلاقية والحادية لأجل أن تظل عروسًا مغرية لكل صاحب مصلحة من المتنفذين في العالم.

إضافة لما سبق، فربما ليس من الإنصاف أن نُغفل دور بعض الأفراد الذين لعبوا دورًا هامًا في الحركة الصهيونية، فمما لا شك بأن هناك شخصيات بـارزة فـي تاريخ الحركة الصهيونية لا يمكن طمس ذكرها قد ساعدت على بـروز الحركـة الصهيونية ووصولها إلى هدف قيام الدولة اليهودية في فلسطين، ولـيس هنـا مجال للحديث عن كل زعماء الصهيونية البارزين وما قدموه من أجل منظمـتهم، لكن لا يمكن بحال من الأحوال تجاهل دور الشخصية العبقرية السياسية اليهودية الشابة التي لعبت دورًا رائدًا في خدمة القضية اليهودية خلال النصف الثاني مـن القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تلك هي شخصية الصحفي النمساوي

اليهودي المجري الأصل "تيدور هرتزل" صاحب كتاب "دولة اليهود" الذي صدر في عام ١٨٩٥م، فلقد كان المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م الذي انتُخِب هرتزل رئيسًا له، نقطة تحول في تاريخ الحركة الصهيونية وتاريخ اليهود في العالم حتى أن هرتزل قال بعد انتهاء المؤتمر "أستطيع أن أقول، بإننا قد أقمنا الدولة الصهيونية في فلسطين".

كما يمكن القول أيضًا بإن نجاح الحركة الصهيونية قد قام على عوامل سلبية، لكن الفضل يعود كما أسلفنا لفاعلية وقوة رأس المال اليهودي الذي لعب كل الأدوار في خلق إسرائيل، وليست المباديء والمُثُل والشعارات وحدها التي قادت إلى تحقيق الهدف.

هذا ويمكن القول بسهولة بإن فكرة الدولة الإسرائيلية هي فكرة شيطانية نُسِجَت من أوهام ليس لها أرض يمكن الوقوف عليها، فمن العوامل السلبية أيضًا التي بُنيت على أساسها إسرائيل، أن فكرة الصهيونية ارتبطت بشيء لا أخلاقي مثل معاداة السامية، رغم أن الفلسطينيين أيضًا وهم من أقيمت إسرائيل على أنقاضهم هم ساميون، إن إنشاء الدولة اليهودية قد أقيم على أرض الغير بل كانت الأرض مسكونة، لذا كان لغياب السبب الأخلاقي دورًا إيجابيًا في دعم إنشاء الدولة اليهودية خصوصًا حينما ساعد وبارك قيامها دول الاستعمار.

إن علاج الخطأ بخطأ أفظع منه هو خطأ كبير، وذلك لأن المجتمعات الأوروبية وجدت ضالتها من الانتقام من اليهود بلفظهم من الدول الأوروبية وتحولهم من أعداء إلى أصدقاء في معادلة شيطانية لا تقبل التأويل وتطمس الخطأ: فاليهود كانوا مكروهين وغير مرغوب بهم في كل دول أوروبا والولايات المتحدة، وتقلبات معاداة السامية لا تنفك ما تكاد تهدأ حتى تعود ثانية، ولما استطاع زعماء الحركة الصهيونية الناطقين باسم أغنياء اليهود أن يتحالفوا مع الحكومات الغربية ورفعوا شعار تخليص اليهود من الظلم ومعاداة السامية بخلق وطن قومي لهم، أضحى اليهود مركز العطف والاستحسان والمباركة من قِبل الشعوب الغربية التي باركت قيام إسرائيل، وأضحى اليهود ممنونين وشاكرين للغرب وأصبح

المصير واحدًا هنا وهناك، لكن الوازع الديني في كلمة (الصهيونية) كمصطلح للدلالة على أهمية الجسر الديني التاريخي بين (صهيون) الأمس والصهيونية اليوم لا يمكن إغفاله حتى يتم التزاوج بين الدين والسياسة والاقتصاد، أي بين أرض التوراة ومملكة داود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد، وبين الحركة السياسية ذات البُعد الاقتصادي في نهاية القرن التاسع عشر، هذا وقد وردت كلمة (صهيون) في التوراة (١٥٢) مرة، وفي العهد الجديد (٧) مرات، وتأكيدًا لأهمية الجذر الديني يقول "هربرت بارس" في شرحه لطبيعة الصهيونية: "تعلم اليهود أنهم نفوا لأنهم ارتكبوا الخطيئة، وعندما يُكفّرون عن خطاياهم يعودون إلى أرض الميعاد"، وقد استغل زعماء الحركة الصهيونية هذه المقولة أبشع استغلال لكي يوجهوا بقوة أنظار اليهود نحو فلسطين للبحث عن هوية، الأمر الذي خلق رابطة وحدوية (ملفقة) بين اليهود في الشتات وبين مقولة أرض الميعاد، من ناحية أخرى ارتبطت العاطفة اليهودية بمعاداة السامية الحديثة، فتوجه اليهود نفسيًا وفكريًا نحو حل مشترك ببناء وطن خاص بهم على أن يعتمدوا في ذلك على الدوافع التي تثير العواطف التاريخية أو المعاصرة، سواء كانت إيجابية أم سلبية.

مع بروز القوميات وانتشارها في أوروبا كان السؤال الذي طرحه اليهود على أنفسهم، هل بإمكان اليهود أن يُساهموا في بناء حضارة قومية في أوروبا أو يكونوا مواطنين فيها، كان جواب زعمائهم ما معناه، نعم لحضارة قومية لليهود ولكن قبل ذلك يجب أن يكون لليهود قومية على أرضٍ لهم يكتسبون فيها شرعية تاريخية، وهذا ما دفع بالتطلع إلى فلسطين، وهكذا استمرت الحركة الصهيونية تتطور مع الأيام والسنين من أجل هدف لم تَحد عنه.

هذا، وكان دور الاستعمار الغربي درسًا بليغًا لزعماء الحركة الصهيونية، فقد جعل التيار القومي (الاستيطاني) من الصهيونية ينتصر على التيار الصهيوني الوطني (التوطيني) الذي كان يدعو إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم الأصلية بسبب أنه لا يكفي أن يهاجر اليهود مثلاً إلى فلسطين ويعيشون في كنف الدولة

الحاكمة هناك ويشكلون قوة استعمارية لها ما لها من أهداف، لقد تعلَّم الصهاينة من الاستعمار الغربي بأن الأيام دول وأن الاستعمار لبلاد الغير سيزول مهما طال أمده، لذا سعوا إلى خلق وصناعة شعور قومي لدى المتدينين اليهود حتى يدفع هؤلاء إلى البحث عن وطن لكي يكون استعمارًا استيطانيًا يملك حاضر الأرض ومستقبلها، وبذلك جسدت الصهيونية في تحالفها مع كبرى الدول الاستعمارية تحالفًا لا حياة لها من دونه.

لا شك بأنه ما زالت هناك تناقضات في الدعوة الصهيونية لم تحل بعد حتى يومنا الحاضر، وما زالت تطفوا إلى السطح أحيانًا فتتوتر الأشياء، وهو ما يشكك في استمرار الدولة الصهيونية كفكرة وكنظرية وكاستمرار على أرض فلسطين، هناك تناقضات لا يمكن تجاوزها ولم تجد حلولاً بعد، هناك التناقض العلماني الذي تتبناه الحركة الصهيونية التي لا تعترف بالدين، وهناك الجذور وأدوات الدين اليهودي التي كثيرًا ما تتصادم مع فكرة إنشاء دولة لليهود في زمن الحياة الدنيا، كما أن هناك تناقض بين الفهم الغربي للحضارة الحديثة وبين الحضارة الشرقية اليهودية التي تتناقض كثيرًا مع الحضارة الغربية في المأكل والنوم وأيام العمل وروتين الحياة اليومي، هناك تناقض رغم كل ما فعلته الحركة الصهيونية حتى الآن، وما صنعته من شعارات بين الصهيونية وبين حاخامات وطوائف من اليهود لا يُغفل وزنهم، ينكرون أن يكون لليهود وطن قومي كون اليهودية دين وليست قومية كما يفهمونها.

بعد قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م نشب خلاف بين زعماء الحركة الصهيونية الذين أسَّسوا دولة إسرائيل، رأى فريق منهم بأن تُدمج المنظمة الصهيونية بالدولة الناشئة وتهتم بأمور إكمال وتقوية الدولة الفتية، ورأى البعض الآخر أن تظل المنظمة وتستمر في خدمة الشئون اليهودية في الخارج، ولم يطل الخلاف حتى تم الاتفاق إلى دمج المنظمة الصهيونية بالدولة عام ١٩٤٨م بعد انتخاب حاييم وايزمان رئيسًا للمنظمة.

هذا ولم يهدأ نشاط المنظمة الصهيونية، فكما عدلت أهدافها بعد قيام إسرائيل، عملت أيضًا على تعديل أهدافها بعد حرب ١٩٦٧م، ففي عام ١٩٦٨م انعقد المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون، وصدر برنامج سُمِّي "برنامج أورشليم"، صدر عن ذلك بيان يؤكد على وحدة الشعب اليهودي ومركزية أرض إسرائيل، وأوصى بجلب اليهود من كل أصقاع الأرض والتشجيع على الهجرة، والمحافظة على أصالة الشعب اليهودي من ناحية التشجيع على التعليم اليهودي الديني واللغة العبرية وبث القيم والثقافة اليهودية، كما أوصى المؤتمر بأن تكون الكلمة العليا لدولة إسرائيل وليس للمنظمة الصهيونية خصوصًا في موضوع الهجرة اليهودية، وعلى ذلك تأسست "وزارة الاستيعاب" للقادمين الجدد، وبذلك تخلت المنظمة الصهيونية عن دورها التاريخي للدولة.

تقول إحصائيات المنظمات الدولية إن ما يزيد عن ٨٠% من أراضي الفلسطينيين تم اغتصابها من قِبل المنظمات اليهودية قبل وخلال عام ١٩٤٨م، مما جعل الفلسطينيين يعيشون في دولة تعتبرهم مواطنين من الدرجة الثانية وهو ما يتنافى مع مباديء حقوق الإنسان التي أقرتها الدساتير والمواثيق العالمية، كما وأن القانون الإسرائيلي لا يعترف بزواج اليهود من غيرهم إذا تم الزواج خارج إسرائيل، إذن على المرء ألا يحتار فعليه أن يقرر إما هو مع العدل والمساواة بين المواطنين في إسرائيل عربًا ويهودًا أم مع الدولة اليهودية التي تحكم بالقوانين العنصرية أو ما نشأت عليه الصهيونية العالمية التي وُلِدت من رحمها تلك الدولة.

ليس للإنسان في إسرائيل خيار أن يُطالب بدولة يتساوى فيها الناس جميعًا، ومن يعترض فإما هو يدعو إلى إزالة إسرائيل إذا كان فلسطينيًا وإن كان يهوديًا فهو كاره لذاته، وإن طالب بتطبيق قوانين حقوق الإنسان فإنه مُعادي لوجود إسرائيل أو مُعادي للسامية، وفي كل الحالات يكون المعترض في موقع الدفاع.

تُعتبر إسرائيل كيان فريد بين الدول، فلو طالبت بأن تكون بريطانيا دولة واحدة موحدة يتساوى فيها الناس جميعًا أمام القانون، فلن يعترض أحد على ما تقول،

ونفس الشيء عن الولايات المتحدة وعن أي بلد آخر من القارات الخمس، لكن لو طالبت هذا في إسرائيل فإنك متهم باعتراضك على وجود إسرائيل نفسها، لهذا أضحى جليًا أن حق "الدولة اليهودية" في الوجود غير متطابق مع القيم العالمية الراسخة في المساواة بين مواطني الكيان الواحد.

لذا فإن الصهاينة أيضًا، أولئك الذين انشأوا إسرائيل على حساب العرب في فلسطين، ربما لم يدركوا أن الغرب الذي مهَّد لهم ذلك، وقدَّم كل شيء وما زال، هو نفس الغرب الذي كان يستخدمهم على مر السنين للتآمر كلما احتاج، وإن دورهم بقي كما هو خَدمًا للأقوياء من أجل الفائدة المادية التي لا أحد يُنكر بأن لها دورًا هامًا في صناعة الأحداث، إلا أن دورها لا يصمد دائمًا مع تغير الأزمان، لقد رأينا كيف كان حال اليهود في أوروبا قبل الثورة الفرنسية، وكيف كان حالهم قبل ذلك حينما خرجوا من أسبانيا، وكيف صار حالهم بعد الثورة الفرنسية ثم ماذا حدث لهم في الحرب العالمية الثانية فهل نفعهم المال، المال قد يخدم في بعض الظروف لكنه لا يساعد في كل الظروف، وما دامت الأيام ثواني ودقائق وساعات والزمن لا يتوقف فإن كان المرء في لحظة معينة يفكر في أمر مُعادي لشخص آخر فإنه يتوجب على المرء نفسه ألا يغيب عن فكره بأن الشخص المقصود ربما هو أيضًا يفكر بطريقة عدائية ولكن بأسلوب مختلف، وكذلك هي الأمم والشعوب وقادتها والأيام دول.

لو أردنا مثلاً أن نتصور كيف كان يفكر زعماء الحركة الصهيونية في فترة ما بعد صدور وعد بلفور وقيام دولة إسرائيل، وكيف كانت تُفكر النخب البريطانية في ذلك الوقت، فربما نجد مزيجًا من التوضيح عما آلت إليه الأمور.

الصهاينة كانوا منهمكين كيف يدفعوا بالمهاجرين إلى فلسطين وينشئون المستوطنات، وكان لا هدف يعلو عن هدف قيام الدولة اليهودية، والنخب البريطانية من ناحية أخرى لم تضع أي اعتبار لليهود رغم أنها هي نفسها من عمل على إصدار وعد بلفور! فحينما كان يقتل اليهود على أيدي النازية لم يدير الإنجليز بالاً لما كان يحدث لليهود، قال السير "رونالد ستورز" أول حاكم للقدس

تحت الانتداب البريطاني، "إن قيمة السيادة اليهودية على فلسطين تكمن بالنسبة لانجلترا في إقامة كيان يهودي مَلكي موال على طريقة أيرلندا الشمالية، وذلك في بحر من العروبة المعادية"، إذن لم تكن أغراض الإنجليز إنسانية أو خيِّرية، وهذا بالضبط ما كان يهم بريطانيا في ذلك الوقت، بل يمكننا أن نتخيل كيف كانت نظرة فرنسا والولايات المتحدة أيضًا للدولة اليهودية القادمة.

من هنا يتضح أن كل شيء تقوم عليه إسرائيل هو زائف، لأنها لم تولد ولادة طبيعية في بيئة ومناخ طبيعي، فأسبابها ومادتها وصناعها وفكرتها ما زالت في مهب الريح، لأن وجود إسرائيل كان لأهداف زمنية تعتبر آنية في عمر الإمبراطوريات والدول، كأن تكون مثلاً مانعة الصواعق للصراع الطبقي (والوطني) الدائر في المنطقة العربية، ومستفزة للكراهية العربية، وراعية للحروب الإثنية (الطائفية)، ذلك لأجل أن يتسنى للأنظمة العربية الجالسة على برميل بارود من التناقضات والفساد والثورة، الاستمرار في السلطة عن طريق تحويل سخط الجماهير باتجاه إسرائيل، وهو ما جعل فرنسا تمد إسرائيل في البداية بالسلاح والطائرات، وجعل الولايات المتحدة بعد ذلك تمد إسرائيل بالعتاد الثقيل.

إن وجهة نظر النخبة التي تتحدث من خلف الكواليس في الغرب، أن استفزاز الحرب الإثنية في المنطقة العربية من قِبل إسرائيل هو أساس وظيفة الدولة اليهودية بل إن أغلبية اليهود الذين ذاقوا ويلات النازية من ضحايا الهولوكوست كونهم قد فهموا درس لعبة الأمم أكثر من غيرهم من أبناء عقيدتهم، فحين خُيِّروا بين الولايات المتحدة وإسرائيل، اختاروا الذهاب إلى الولايات المتحدة لأنها بدت أنها تمنحهم ما يريدونه حقًا، مجتمعًا يتساوى فيه الناس جميعًا أمام القانون، ويُعامل فيه اليهود كغيرهم تمامًا، وليس كحال خُمس سكان إسرائيل (حتى سنة ٢٠١٠م) من الفلسطينيين الذين رغم أنهم أصحاب الأرض الأوائل وأقدم من إسرائيل، يُعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية.